صور القلق في النص الشعري العراقي المعاصر

Anxiety in Modern Iraqi poetry

أ. د. سهير صالح علي

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

dr. suhair@uomustansiriyah. edu. iq

Prof. Dr. Suhair Salih Ali

Mustansiriyah University/ College of Arts/ Department of Arabic Language

ملخص البحث

يعدّ القلق من الظواهر المهمة في الشعر العراقي المعاصر، وقد تنوّعت صور هذا القلق بتنوع الضغوط التي يعيشها الإنسان في عصرنا ، وكلّ تلك الضغوط تصبّ في إطار معاناته من الأعباء والخيبات التي يعيشها في ظلّ التغييرات المجتمعية التي تؤثر بشكل مباشر في نفسيته وحياته وآماله وطموحاته والتي انبرى الشعراء في التعبير عنها بتناولهم لصور تلك المعاناة. فهناك علاقة مباشرة بين الأدب والعلوم النفسية التي تهتم بنفسية الإنسان وماتعانيه من صراعات شتى رغم أنّ ظهور الأدب يسبق بكل تأكيد نظريات علم النفس التي توغلّت في النفس الإنسانية وعالجت الكثير من أزماتها سيما أزمة القلق بوصفه الأشد أو الأكثر إنتشاراً بين الناس في المجتمعات الحديثة. ويتناول هذا البحث الصور المختلفة للقلق بتنوّعها بين التوتر والوسوسة والوهم والهلوسة وغير ذلك من الصور التي تجسّد الأزمة بأسئلتها المتراكمة في الذهن والتي تحتاج الى من يأخذ بكلّ سؤال ويفتح السبل لإعطاء الحلول وإقتراح الأجوبة ،هنا يقف النقد بمنهجيه الإستدلالي والنفسي ليرصد هذه الظاهرة، المنهج الأول يستنبط المعنى من الكلّ الى الجزء لإثبات الحقيقة وبالإستناد الى أسس علم النفس وهو المنهج الثاني المعتمد في هذه الدراسة حيث يتناول الظاهرة النفسية ويُخضع النص الأدبي لنظريات علم النفس ويكشف عن أسباب تلك

الظاهرة ومنابعها الخفية فيخدم هذا النوع من النصوص ويعين في تفسير صور القلق وما فيها من أبعاد وآثار تتّضح في الصور الشعرية المتجددة بتجدد أساليب الشعراء في التعبير عنها.

الكلمات المفتاح: القلق، النقد النفسي والإستدلالي، الشعر العراقي. نظريات فرويد

Abstract

Worrying is an important concept or a problem when it comes to the Arabic contemporary poetry. There are different aspects to this problem as a result to the various kinds of political, social and – without doubt – personal pressure which we face and struggle with constantly. This suffering is expressed by the modern Arab poets; considering the fact that they are parts and spokesmen of this issue. This research tackles issues like tension, hallucination, obsession and other mental issues through reasoning analysis. It is a very vital and dynamic topic that deserves research by focusing on the poetic symbols and images presented and written by .contemporary Arab poets

The psychological factors are not considered minor or of secondary importance, on the contrary, they are regarded as the essence of the poet`s struggle to express his inner turmoil ; the turmoil that is part of his pursuit to prove his identity, fight his demons , heal his personal wounds, and leave an everlasting imprint . The mental problems – in all their types- are a very vital topic that needs constant discussion due to its attachment and association to all of our everyday wars and confrontations.

Key words: anxiety, semantic and psychological criticism, Iraqi poetry, Fraud Theories

مقدمة الدراسة

تحفل النصوص الشعرية العراقية بالعديد من الموضوعات والتنوّع في الأفكار، فالقصيدة الجيدة تتجاوز بعوالمها وموضوعاتها كلّ ما يحاول تحديد إبداعها، والكتابة بأشكالها "وسيلة تعبيرية ذات وظائف نفسية مفيدة والشاعر المبدع يجد نفسه متفاعلاً ومتأثراً بموضوع معين لأنّ له قدرة عالية من الإحساس المرهف بمن حوله وقدرة لغوية للتعبير عنها مما يخلق توتراً خاصاً يستدعي صياغة الكلمات الشعرية التي تتمثل في ذهنه" (حسان المالح، ٢٠٠٤، الصفحات ١٥-٢٠، ج١) ومن تلك التمثّلات تعبير الشعراء عن القلق وكما يقول فرويد: "لست في حاجة الى تقديم القلق لكم، فكلّ منا قد ابتلي بهذا الشعور، والحق أقول لكم أنه حالة وجدانية نشعر بها بأنفسنا وتعاودنا مرة تلو الأخرى" (فرويد، ١٩٣٢، صفحة ٢٥) فالقلق هو العنوان الأبرز الذي تتفرّع عنه الكثير من حالات الإنسان النفسية وما فيها من معاناة وصراعات وما ينتج عن تلك الحالات من أعراض تشخَّص كلٌّ منها في علم النفس بمسمياتها العلمية الخاصة بحسب استاذَي علم النفس (موشي زيدندر و جيرالد ماثيوسنتر، ٢٠١٦). والحقيقة أنّ معاناة القلق وهواجسه موجودة بكلّ تأكيد في العصور القديمة، ولم تخل القصائد في التعبير عنه وعن مسبّباته من الخوف والإحساس بالظلم والغربة التي سبّبتها الهجرات المكانية وماخلّفته من هموم وغيرها من المشاعر المحبِطة ، لكنها بالتأكيد لم تكن لتتفرع الى ماهو أبعد من ذلك لأنّ الحياة لم تكن بكلّ هذا التعقيد الذي يعيشه الإنسان في عصرنا هذا ، فقد تنوّعت صور القلق في النصوص المعاصرة تماماً كتنوعها في الطبّ النفسي، فخرجت علينا بأشكال وصور منها التوتر والإضطهاد والهلوسة والتوجّس وغيرها من الحالات التي تنامَت في ضوء ضغوط الحياة المعاصرة الى جانب التغييرات السياسية والتكنولوجية التي أثّرت في نفسية الإنسان تلك الضغوط جعلته محاصراً بأسئلة يطرحها هو أحياناً على ذاته أو يطرحها على مَن حوله أو يقف المجتمع ضد هذا الإنسان الضعيف المجرّد من كلّ شئ إلّا من أحلامه وطموحاته التي لاتجد لها منفداً لتحقيقها الأمر الذي يجعله محاطاً بالكثير من القلق ،هنا يأتي الشاعر للتعبير عن المعاناة بوسائل شتى وإتجاهات أسلوبية مختلفة تفنّن فيها الشعراء لإستقطاب إنتباه المتلقي . ولابدّ أن نذكر أنّ النقد أيضاً عكس إضافات مهمة وجادة حين تغلغل في هذه التراكمات النفسية التي تناولها الشعراء وتجوّل في آفاقهم اللغوية والجمالية وعلى المستويات كافة من طرائق التصور والتوهّم والتخييل ، فكلّ ظاهرة تحتاج الى المتابعة النقدية لغرض الإلمام بمكوناتها ودلالاتها اللفظية والتعرّف على قدرات الشعراء التعبيرية الى جانب معرفة كيفية توظيف التقنيات الفنية والأسلوبية التي ينماز بها الشعراء كلٌ منهم من الآخر ويُبدع في إبراز قدراته التعبيرية.

النقد الإستدلالي والنفسي

المنهج الإستدلالي هو المنهج الذي يستند الى العقل من أجل استنباط المعلومة للوصول الى النتيجة حيث يبدأ بالكليات ومنها الى الجزئيات، ونقصد بذلك تتبع عناصر ظاهرة معينة في النص من أجل فحصها (إثباتها أو نفيها) ويعين هذا المنهج على إستنتاج الحقيقة لقدرته على إثباتها للتوصل الى فهم واع للنص ولن يتم ذلك إلّا بالإستناد الى منهج نقدي آخر يلائم نوعية النصوص المختارة التي حتّمت علينا الإستعانة بأسس علم النفس (نوال قيطون، ٢٠١٣، صفحة ١٣) ولابد أنْ نذكر أنّ دراستنا هذه فيها شئ من الإبتعاد عن ما يعنيه المنهج النفسي من دراسة النص الأدبي وفق معرفة نفسية الكاتب ومدى تأثير ما مرّ به وأثره في نفسيته ومن ثم انعكاسها في نصوصه وغير ذلك مما كتب عنه الكثيرون بدءاً من النقد العربي القديم حيث نجد الجرجاني مثلاً في أسرار البلاغة قد أفاض في معرض حديثه عن علاقة النص بالناحية النفسية للشعر وتنبه ابن قتيبة لذلك أيضاً وهو مااستعرضته الباحثة (بان حميد فرحان، ٢٠١٢) كما أثبتَ باحث آخر أنّ للنفس علاقة وطيدة ببنية النص الأدبي (عباس فالح، ٢٠٢٠).

فمن المعروف أنّ المنهج النفسي يربط بين الشخصية في العمل الأدبي وشخصية الأديب حيث يرتكز الى اللاشعور ونفسية الأديب وما فيها من صراعات وكلّما عرفنا الشاعر أكثر كلما تمكّنا من معرفة فكره وتوجهه (عز الدين اسماعيل، د.ت، الصفحات ٢٢-٢٣) لكننا في هذه الدراسة سنذهب مع رأي المحلل النفسي جاك لاكان الذي يرى أنّ الإنسان تصيبه في اللاوعي أو اللاشعور حالة إدراكية تحدث داخل نفسه فيجد نفسه منساقاً للتعبير عن مشاعر معينة أثّرت في نفسه (جاك لاكان، ١٩٩٩، صفحة ١١) وقد تكون تلك المشاعر قد أصابت إنساناً آخر أثّرت فيمن حوله وهذا ما حدث مع شعرائنا في قصائدهم التي عبّرت عن تلك الحالات النفسية ، إذن هناك فرق بين الحالة النفسية للشاعر وتأثيرها في النص الأدبي وبين تعبير الشاعر عن الظواهر النفسية العامة التي تغشى المجتمع وتستفحل فيه وردة فعل الشاعر منها بتعبيره عنها وهي مهمة صعبة سيما أنه يدخل الى عالم شرود الإنسان ليمزج معاناته وقلقه بكلماته ويعبر عنها بحالاتها المختلفة بصور فنية وأساليب جديدة وهو ما سنستعرضه في هذه الدراسة التي تتناول جهود شعرائنا في سبيل الوصول الى الحقائق التي تُعين على فهم خبايا الإنسان لمساعدته على تخطي المعاناة النفسية وبمعونة القارئ الذي يُكمل بقراءته مسيرة ذلك الفهم. إذن يشترك كلٌ من النقد الإستدلالي وعلم النفس مع التفكير الإنساني ليشكّلا معاً أرضية تمهّد لفهم النصوص الشعرية المختارة والتي احتوت القلق على اختلافه وتنوّع أشكاله وتقف أيضاً على إبداع شعرائنا في التعبير عنها.

صور القلق

صورة التوتر

ثمة تجاذب خلّاق بين الشعر وبين آفاق التوتر الكامن في خبايا النفس البشرية التي يقودها الإجهاد الطويل والتفكير المفرط الى شعور حادّ بالتوتر ، ومن أمثلة هذه الصورة نص الشاعر فلاح الشابندر الذي يقول : (كتبتُ غرفةً/ ليست بالضرورة قائمةً على جدرانٍ وسقف/ لكني جاهدٌ باتجاه هدفي/ أنْ أكتب غرفةً/ ولنا أن نتصور/ انّ الغرفةَ تلك، محمولةٌ على ظهر أحرف/ لم يساورني التخمين، وهو الأكثر غرابة/ أن أتمِّمَها غرفةً/ على نحو دائري كما لو كانت الأبد/ نبوءةَ قدرٍ وآية تُشرق مرايا/ مرايا في معتقل الوقت/ تجريد الأكثر اكتمالاً/ وبينما يتعاطون الصمتَ النواطير/ أذرعني في المكان برفقة حجارة/ بين أقدامي أركلها عائدة.. أركلها ثانية/ والأخرى لا لسبب سوى على باب الوقت/ على باب/ لا أحد سواك، سواك لا أحد/ يتلفّت... يتلفّت... يتلفَّت/ السؤال:/ السؤال ما..؟/ ما الوقت../ ماالوقت الآن؟/ ما../ ما بقى... منك؟؟) (فلاح الشابندر، ٢٠١٤، صفحة ٢١)

يعدّ التوتر الزمني (المتعلق بالوقت) من أبرز أنواع هذه الحالة النفسية التي يعيشها الإنسان المحاصَر بمصادر هذا التوتّر الوجودي المتنامي بالضغوط الحياتية والقلق بإزاء متطلبات الحياة المتسارعة سيما حين يجد نفسه عاجزاً عن مواجهة كل ذلك التضييق، فيحاول جاهداً أن يحمي نفسه (بعزلها) ولو بخيالات متصوَّرة، هذا ما فعله الشابندر في نصّه الذي احتمى فيه بغرفة (ليست بالضرورة قائمة على جدران وسقف) فهي غرفة بمتصوّرها النفسي الذي يلمّ من خلالها وقته المبعثر وروحه المعذبة النص يترجم التوتر الذي يطوّق الشاعر من خلال ثنائيات مضمرة: (توتر مستمر/ متقطع) (توتر مستمر بدلالة الوقت واستمراره (باب الوقت) (توتر متقطع بدلالة مابقي من الوقت ما الوقت الآن؟ ما بقي منك).. فيزعزع اطمئنانه ويثير فيه أسئلة الزمن الذي قارب على الإنتهاء ولم يمنحه الفرصة لتحقيق أحلامه، زمن احتال عليه بأشكاله اللاهية لكنها في النهاية تحمل الخيبة ذاتها (حجارة بين أقدامي أركلها عائدة.. أركلها ثانية) فهي بمثابة مرايا تعكس النتيجة ذاتها (مرايا في معتقل الوقت) فما كان منه لينهي ذلك التوتر في هذه الغرفة علّها تمنحه أماناً وإن كان مزعوماً لكنها في الأقل تسمح له بالإنكفاء على ذاته مستقبِلاً ما تبقّى من وقته وحياته بطمأنينة حتى وانْ كان هذا المتبقّي من الوقت سينقضي بأسئلة كثيرة تكبر وتنمو مع الوقت لتزيد من فاعلية التوتر وتزيد أيضاً من إنشغال الإنسان في البحث عن إجابات عنها .هذا مايدعى بتوتر الوقت وهو توتر من نوع خاص لأنه لن يهدأ إلّا بالعثور على إجابات عن تلك الأسئلة ولن يكون العثور عليها بالأمر السهل بل سيستغرق وقتاً كثيراً يصل في كثير من الأحيان الى الإخفاق الذي يتحول مع الزمن الى حالة مرضيّة وهو ماعبّر عنه الشاعر في هذا النص.

صورة التوجس أو الخوف.

وهي من صور القلق المعروفة وتصنّف من ضمن أهم الإضطرابات النفسية التي يعاني منها الكثير من الناس وقد جسّدته الشاعرة سجال الركابي في هذا النص الذي تقول فيه : (كلّما سألتَني/ الى متى تتوجسين؟/ تمشين حافية على الحروف/ تلتصقين بالضفاف/ هَمَستكَ الرموش:/ ربما أخشى أسماك البيرانا/ إنْ التهمتني/ من يكتب لك بماء الورد؟/ من يُطعم زاجل الحمام؟/ وربما أخشى قناديل البحر/ تنثّ سمّها في أناملي/ فتنبذني/ كاتمة أسراري الإلكترونية/ تلك التي تنبهني الى/ مدّكَ وجزركَ/ وأنتَ/ كلّما توجّستَ/ توردتْ خدود العزلة/ فإذا السّهاد يصبو الى إغفاءة/ على زند بوحكَ/ فمتى حنان روحك يمسّ موجَ ظمأ ليستكين؟) (سجال الركابي، ٢٠٢٢، الصفحات ٢١-٢٢).

تأتي هذه الصورة من القلق على هيئة التوجس أو الخوف، وهو إحساس داخلي بأنّ شيئاً ما سيحدث، توّقع حدوث الشر، تقابله الحاجة الى الإطمئنان والأنس، وعادة فأنّ الخروج عن المألوف هو ما يوقع الأنسان بهذه المتاهة، ربما لأنّ قسوة الدرب تجعل سير الإنسان باطمئنان ترفاً غير متاح فهو أشبه بـ: (المشي حافية) وولوج الخطر من المعاني، الخطر المتمثل بـ(قناديل البحر) التي تنثّ السمّ والشبيه بـ(سمك البيرانا) المعروف بخطورته على الإنسان بسبب قوة فكّها التي يمكن أنْ تتسبب ببتر إصبع مَن يطعمها من دون أنْ يأخذ حذره. هنا يتعزّز خوف الإنسان وينمو توجسه ممن حوله، فيفضّل العزبة تلمساً لسبل النفاذ من كل ما يعيق الأمان والطمانينة. قد تورث عزلة الذات أسئلة كثيرة لكنها في الوقت نفسه تورث إبداعاً على مستوى الفكر لأنها (أي العزلة) حاضنة ثقافية تشكل باعثاً جديداً لقول الشعر، فهي وسيلة لإدانة كلّ ما يسئ لإنسانية الإنسان ويعكّر صفو عيشه الآمن، فمن خلالها يصبو السّهاد (على إغفاءة) وتستكين الروح الظامئة للأمان ولن يكون هذا الأخير(أي الأمان) إلّا مساحة وهمية تُشعر الإنسان بالرضا والراحة يخرج فيها مؤقتاً من الخوف والقلق ليستشعر وعلى عجالة خطوته القادمة علّها تعزّز شيئاً من الأمان في نفسه.

صورة الوسواس

يأتينا شاعر آخر بصورة أخرى من صور القلق وهي الوسواس بهواجسه الملحّة وسلوكه المتكرّر المعبّر عن مخاوفنا التي نبالغ في تصويرها ،فهو إضطراب نفسي يصيب الفكر الذي يحتشد بسوداويته في الذهن

ولايستطيع الإنسان أنْ يقهر تلك الأفكار أو يتخلص منها فتبقى مسيطرة عليه رغماً عنه ،ومثال ذلك قول الشاعر يقظان الحسيني : (روح لائبة/ يمهلها قليلاً/ يخفق هذا المرصاع/ ينسج حصيرة دورانه/ عربات تضجّ باللاعبين/ الرّامين مراصعهم/ الدائرين معها/ في ليل الليل ونایاته/ في حزن الحزن/ في البؤرة/ في العينين الأغنيتين/ الرموش حدائق تصغي/ وتبارينا أيّنا يدور لوهلات أطول/ بروح مثقلة/ تمسك بطرفي اللعبة/ تستلّ الخفقات/ وتدور) (يقظان الحسيني، ٢٠٢٠، صفحة ٢٩).

يتصل الوسواس بنمط من المخاوف أو الأفكار المضطربة التي تُنتج سلوكاً متكرراً سواء في الكلام أو الحركات ،وكلما ازدادت أو استمرت تلك الإضطرابات التكرارية كلما إزداد الشعور بالقلق والضيق. وفي هذا النص نرى أنّ الدوران الذي هيمن على النص يعكس الحيرة التي يعيشها الإنسان وهو يتإرجح بين: الليل وحزنه (في ليل الليل ونایاته، في حزن الحزن) وطرفي لعبة المصراع وهم في (عربات تضجّ باللاعبين الرامين مصارعهم). فعل الدوران علامة دالة على فعل التكرار –أهم سمات الوسوسة– والقارئ يستطيع تخيلها والإحساس بها، فهذا الفعل قادر على تشكيل العلاقات اللغوية الأخرى والتي تتشكّل بمقتضاها لعبة المصراع (عربات تضج بالرّامين مصارعهم.. أيّنا يدور لوهلات أطول... روح لائبة).

هذا الدوران يدعو القارئ الى مشاركته القلق ووسواس تكرار الحركة ذاتها ليحملا معاً عبء تلك الروح المثقلة ،فقلق الدوران في حلقات من الفناء الروحي يوجب غيبة الإنسان عن كلّ شئ ،ولعلّه يرغب في ذلك الفناء ليصل من خلاله الى شئ من الطمأنينة والأمان، وتلك الصورة الشعرية على قصرها لكنها استطاعت أنْ تصل الى المعنى وتجعل القارئ يتخيل تلك الصورة للمصراع بحركته ودورانه الدائم فتثبت في المخيلة صورة الوسواس وتكتمل سماتها.

صورة القلق العصابي

وهي صورة شائعة جداً في عصرنا ،ومن أهم سماتها أن الإنسان لايعرف سبباً لمخاوفه ويعجز عن تحديد أسباب قلقه، وقد عبّر الشعراء عنها بصور شعرية مختلفة ،منها قول الشاعر ماجد الحسن: (كثيراً ما ألعن طفولتي/ في جحيمها لم أسترق النظر الى السطوح/ أو أستنطق وحشتها/ في طفولتي/ الفجر لم يكن يقظاً/ ليدلّني على الفراشات/ كنت مجبولاً على التراب/ وكانت الوحشة رصيفي/ تجرّني من الجوع الى الليل/ الوحشة/ ذاتها البيوت التي يستيقظ فيها الأرق/ من هنا/ كثيراً ما ألعنها/ ألعن النهر/ فالسباخ يلتهم البساتين/ والنبوءات يخنقها

فضاءٌ مغبر/ في طفولتي/ أتوسل البكاء/ وأنا بعد/ لم أعلق بوحل الأحلام/ في طفولتي ألعن كلّ شئ/ إلّا الليل/ ملاذاً يشاطرني اللهيب/ ولا ينتشي/ بجسد ناحل وعينين فقيرتين) (ماجد الحسن، ٢٠١٦، الصفحات ٣٠-٣١).

فالقلق العصابي هو القلق الذي يجعل الإنسان يحمل معاناةً من شئ لا يستطيع تحديد مصدره بالضبط، شعور مؤلم بالتشاؤم، هو إحساس غامض يشبه الخوف والتحفّز مع اختلاف بسيط هو أنّ الخوف والتحفّز قد ينتهيان بزوال المؤثّر الذي استدعى تلك المشاعر ، بينما القلق العصابي يبقى في النفس لأنّ مايثيره شئ داخلي يحتاج الى تحليل ودراسة ، فهو هو عمليات إنفعالية متداخلة تحدث خلال صراع نفسي (فرويد، ١٩٣٢، صفحة ١١) وتتعدد أسباب الصراع النفسي في هذا النوع من القلق ، لكن من أهم تلك الأسباب زيادة متطلبات الحياة ، الأمر الذي يؤدّي الى الإحساس بالعجز لأنّ الإنسان يشعر بأنه لايستطيع الإستمرار في عصر متطلّب ومتقلّب في نوع احتياجاته وضرورة سرعة الحصول عليها وهذا مايجعله مفتقداً للإحساس بالأمان ، و يزداد أحياناً هذا الإضطراب حين يعود الشاعر الى ذكريات الطفولة ليتحدّث بلسان الكثير من الناس الذين تسبّبت اضطرابات النشأة في حياتهم وطفولتهم في هذا النوع من القلق، واستدعاء الطفولة في أيّ قصيدة له أهميته في بناء النص الشعري ، فهي المجال الذي يرتدّ فيه الإنسان الى ذاكرة تبقى حيّة طوال حياته ، وقد تجسّد ذلك في نص الشاعر ماجد الحسن الذي يخاطب فيه الإدراك قبل أنْ يداهم الجسد فيقلّب في السلوك ويذبذب استقرار الوعي، ولأنه يعرف حجم التأثير الإنساني الحساس القوي للطفولة فإنه يستدعي طفولته ومن خلال مخزونها الوجداني يطلق ذاكرة خصبة ، مرةً بالصور التي تستفزّ الذاكرة لتشكّل خبرات مؤثرة في الشخصية وأخرى بالأحداث (أستنطق الوحشة.. أسترق النظر... يشاطرني اللهيب..) فلم يكن هناك تحديد لأيّ أثر – سوى هذه اللعنة التي صبّها الشاعر على طفولته وكانت كافية ليدرك القارئ عمق ذلك التأثير فيعذر تنقّله من وحشة الرصيف الى أرق الليل ليختمها بأحلام ضائعة حفرت ملامح الخيبة على وجهه (جسد ناحل وعينين فقيرتين) . والحقيقة أنّ استدعاء الشاعر للطفولة جعل النص أكثر فاعلية لأنه كثّف الزمن في مرحلة واحدة ، فكانت لكلّ لفظة في النصّ إرتباكها ولكلّ شطر صوره المحبطة ، كلّ ذلك ساهم في رسم تلك الصور المترابطة والمتناغمة في نسيج القصيدة الفكري والبلاغي.

صورة الهلوسة

كثيرا ماتؤدي الإحباطات في الحياة والمفاجآت غير السارة الى اعتلال في الفكر ينتج عنه هذا النوع من الإضطراب النفسي ، وقد تناوبت صور الهلوسة بأنواعها السمعية والبصرية والفكرية في نص الشاعر مهدي

القريشي، فيقول : (الضوء، الضوء، الضوء،/ بدأ يؤرقني/ زيتُه فاسد وفاقد سولاف ثمالته/ هذا المنسكب باستقامة زاهد/ والمتراقص مع همهمات سريري/ المتدلّي بخيط أهون من علاقة مجنونين/ الى أين يريد بي؟/ فالطريق شاسع بدون غيمة بلا مزاج/ والرياح أطفأت زهو نشيده وأزقّته بعصير حكمته/ والصرخات ذات أفواه معطوبة بزفير أصفر/ في كلّ المحطات ثمة طريق ليس على مقاس قدميّ/ لذلك/ أعمدة الكهرباء امتهنت الصمت/ والباعة مؤبّدون على الأرصفة/ والشحاذون مجرد مصادفات/ لكنه الطريق/ مرّة يقصر من قامتي حدّ التلاشي/ وبلا جدوى أبحث عن أشيائي/ فيساومني بأنْ أمنحه جزءاً من سهري/ أوَ لا يعرف أنّ مقلتيّ منزوعتا الأجفان/ ولم يبق لي إلا أنْ ألملمَ أحلامي من أفواه العصافير؟/ ومرّة أخرى يمطّ قامتي ليصيرني سارية مهملة/ على شاطئ مهجور/ فألملم أجزائي، خشية أنْ يسرقها زبدُ البحر/ لكن تكسرها صخرة تصلبت بملح البحر/ أيها الضوء المنحدر من الظلمة/ أعد لي ظلّي/ وغادر لا كما تغادر الحرب/ فهو رغم سواده، نسختي دون تزوير) (مهدي القريشي، ٢٠١٩، الصفحات ٥١-٥٢).

الهلوسة تجربة يفترض أنها لاتعدو أن تكون حسيّة ، لكن المشكلة هي اللحظة التي تتحوّل فيها الى حقيقة وكأنّ العقل هو الذي يُنتجها فيؤثّر عندئذ في جميع الحواس الخمس، ولا يعود الإنسان قادراً على أن يميّز بين مايحدث في فكره هل هو حقيقة أم غير ذلك ، فقد يبالغ العقل مثلاً بسماع صوت عادي فيعمل على تضخيمه وهذا ما حصل في هذا النص الذي يرى فيه الإنسان ضوءاً يكاد يعمي الأعين من قوته ولكنه في حقيقته ما هو إلّا ضوء طبيعي يجعل الطريق (يقصر من قامتي حدّ التلاشي) تارة و(يمطّ قامتي ليصيّرني ساريةً مهملة) تارة أخرى فالضوء ومحاولة تجاوزه هو تجاوز الإنسان في عصرنا للصعوبات وإخفاقة مرات عدّة في تحقيق ذلك(تكسرها صخرة تصلّبت بملح البحر) وكلما اشتدّ الضوء كلما عجز عن رؤية الحقيقة (أيها الضوء المنحدر من الظلمة... فهو رغم سواده، نسختي دون تزوير) وكأنها طريقة للهروب من مشاكل لا يتمكن من مواجهتها بدلالة عجزه الثاني عن الحصول على الظلّ الذي يطلبه (أعدْ لي ظلّي) فالظل راحة ونجاة من الهم (الضوء/ الظل). النص يشكل فضاءً بصرياً وإيحاءً متسلسلاً من المؤثرات التي تمنح النص سمته الفنية.

ومن الهلوسة أيضاً نص الشاعر رحيم زاير الغانم الذي يقول فيه: (أسمعُ/ وأنا متخطٍ الدروب/ كلمات تدفعني للمسير/ أستدلّ بعصاي/ نازعاً عن الضوء انسداله/ المساءات تُسمعُني/ قهقهة أصدائها الخالية من المارّة/ كلمات مطلقة العنان/ الطريق المؤدي اليها متاهة/ أشواط متكرّرة تعيد مسيري/ أشواط عابثة تمحو أثر الخطى/ هائمون في الفلاة/ بعيون لايبرقُ فيها نور) (رحيم زاير الغانم، ٢٠١٦، صفحة ٤٢).

تأتي الهلوسة هنا بهيئة سماع أصوات وكلمات في أماكن خالية من مصادر الأصوات بل خالية من الناس ومن كلّ ما يتسبب بالأصوات المزعومة فهي موجودة فقط في مخيلة سامعها (حسان المالح، ٢٠٠٤،

صفحة ٩٠، ج١) تلك الهلوسة تقود الإنسان الى المتاهة التي يفقد فيها المرء بصره وبصيرته فيضيع الهدف وتنمحي كلّ الخرائط الدّالة ولا ينفعه إنْ (استدلّ بعصاه) ولا أية وسيلة أخرى لإكمال مسيرة حياته ولن تبقى له سوى خطوات (عابثة تمحو أثر الخطى) الهلوسة هنا لا نهاية لها ولا علاج. والنص واقعي لدرجة أنه لا يقدّم في نهايته – كما في النص السابق– أية نصيحة أو وسيلة للخروج من مأزق التيه هذا مادامت البصيرة معدومة والأمل غائب سيبقى الإنسان (بعيون لا يبرق فيها نور).

صورة الحيرة

صورة شائعة أخرى في شعرنا المعاصر هي صورة الحيرة ، فالكثير من الشعراء ظلّوا أسرى لها حتى غدَت غذاء روحياً استلهموا منها خيالاتهم وكتبوا من خلالها قصائدهم ،ومن ذلك قول الشاعر صادق الدراجي: (جاءني صاحبي/ وأنا ألمّ الطريق/ الممزّق/ وأتلوّى حائراً/ قال: "دع كفيكَ تقرآنِ صحف الغيبِ/ واصطحبْ في السيرِ/ ناقة صالح/ وارمِ نفسَك/ في الشارع/ ثم انتبه/ من هذه الدروب") (صادق الدراجي، ٢٠١٨، صفحة ٤١).

تعدّ الحيرة وما يعقبها من تيه من أهم العوارض التي تحيل دون القدرة على تحديد الهدف من هذه الحياة لعدم معرفة الإنسان نفسه ورؤيتها على حقيقتها لما تسببه هذه الحيرة من تشويش في الذهن الذي قد يتسبّب باضطراب نفسي يؤدي الى فقدان الإيمان بالنفس الذي يحيده عن المضي قدماً في حياته. فالحيرة والتردّد يجعلان الإنسان يقلب أفكاره وينوّع من احتمالاته، الأمر الذي يعجزه عن اتخاذ القرار الصائب أو يمنعه من أنْ يحدّد هدفاً دون آخر لذا هو بحاجة الى نصيحة تساعده على اكتشاف نفسه بعد أنْ عاش الإضطراب في إختياراته، لذلك نرى أنّ كلمتين قد تبدوان متشابهتين في المعنى لكن اختلافاً دقيقاً بينهما وهما: الطريق والدرب اللذان وردا في أول النص وآخره ممّا يحتّم على القارئ تصوّر الوصول الى الهدف بعد الإنطلاق وبما أنّ الطريق الذي يحدد نقطتي البدء والوصول طريق ممزّق فحتمية الوصول غير مؤكدة لذلك ختمها بالدروب والدرب أنْ نعيش الحياة في بدايتها المؤكدة ونتأمل تفاصيل نهايتها الحتمية مهما كانت صورة هذه النهاية.فالمهم أنْ تُحدث فرقاً باختيارك للدرب الذي تسلكه ،فالحياة إختيار، والتيه أن تبقى في حيرة تحديد الطريق وضياع نقطة الإنطلاق ،النص هنا بمثابة حكمة يقولها الشاعر بشعرية تجاوزت بنية نصّه الى سياق إيراده الذي بدأه بأسلوب سردي وأنهاه بحكمة مغلّفة بنصيحة لأن هذه الأخيرة (النصيحة) ترتبط بتقدير مصائر الناس في حال عدم اتعاظهم من الحكمة ،من هنا غلّفها بالنصيحة لتكون ظاهرة واضحة للعيان.

صورة الوهم

وهذه الصورة موجودة في الكثير من نصوص شعرائنا المعاصرين لسببين ، أولهما أنّ الوهم مع الخيال الخصب يشتركان في تشكيل الصورة الشعرية ، ولكي تكون هذه الصورة بليغة لابدّ أن يخرج بها الشاعر عن إستخدامها التقليدي –وهو ماسنراه في المثال الآتي – ، والسبب الثاني هو أنّ الوهم قد يأتي نتيجة افتراضات يقوم بها العقل ، لكنها وبإزاء الحياة ومصاعبها تتحول الى أوهام وضلالات ، فيتمنى المرء أن مايراه ليس بالضرورة أن يكون حقيقة، ومن ذلك نص الشاعر سعد ياسين يوسف يقول فيه: (من قال/ أنّ ما مرّ/ من زمن تآكلتْ أقدامُه/ على جمر أحزاننا كان حقيقة؟/ أغمضي عينيك فقط/ وتأمّليها/ تلك السنين التي تسرّبت/ كالماء/ من بين يديك/ أين مسراتها/ وكم من الحزن اختزنت/ وأودعتْ فينا/ لتتلاشى تاركة/ جراحاتها، ندوبها/ عميقاً، عميقاً/ في الذاكرة/ ولأنّ ثمّة قمر بزغ الليلة الماضية/ وشمته بأفق الخيال/ وأنتِ تقفين على فوّهة اغتياله/ كرصاصة طائشة) (سعد ياسين يوسف، ٢٠١٨، صفحة ٥٩).

فالوهم، أحد أهم مشكلات علم النفس (حسان المالح، ٢٠٠٤، صفحة ١١٣، ج١) (حيث يفقد الإنسان من خلاله القدرة على التمييز بين الواقع وما يتخيله، ويصبح متمسكاً بصور ومعتقدات ورؤى غير واقعية وغير صحيحة، وهذا النص الذي يفتقد الإنسان فيه الإحساس بزمن عاشه ويتخيل بأنّ ما مرّ ربما لم يمرّ حقيقة (من قال أن ما مرّ من زمن... كان حقيقة) فيحاول خلق فكرة بديلة تكون في الغالب إيجابية يعكس فيها السلبي الذي مضى وعسى – في هذا العالم البديل– أنْ تفلت عن طريقها الرصاصة فتكون طائشة لا تصيب هدفها فننجو ونكمل نحن مسيرتنا. الرصاصة رمز الإنتقام من زمن عشناه وتسربت سنواته، وفي الزمن النفسي فإن تسرّب السنوات هو مصطلح يعبر عن سرعة مرور الزمن وشعور الانسان به يختلف بحسب ظروفه ومشاعره فهو زمن مختزن في الذاكرة وقد جمع الشاعر أقطابه في هذا النص (السنوات/ الذاكرة/ الليلة الماضي)، زمن لا نريد الإعتراف به فهو رمز لنهاية مرحلة صعبة مليئة بالعقبات نتوهم بسببها عالماً آخر يحلم به الإنسان آمناً ويسعد مطمئناً. وقد يأتي الوهم في الشعر بشكل عكسي أي أنْ يتوهّم الإنسان حياةً في كلّ ما يعجز عن منحنا الحياة، فأصوات العصافير وغناؤها والنباتات والشجر كلّها مظاهر حياة وازدهار والشاعر في النص الآتي يتوهّمها في عالم يخلو من كل ذلك حيث يقول عبد الحسين البريسم: (في بيتنا/ ليس ثمّة شجرة/ ولا حتى نبتة ظل/ فمن أين هذه الأصوات/ وهذا الممرّ الطويل/ يؤدي الى غرفة لا أملكها/ بملايين العصافير/ أنا أسمع الغناء/ ولكني/ لا أرى العصافير) (عبد الحسين البريسم، ٢٠٠٩، صفحة ١٠٨).

الوهم إذن هو اضطراب في التفكير واعتقاد زائف أو خيالي مبني على تشوّه في السمع أو في البصر (فرويد، ١٩٣٢، صفحة ١٣٠) فالشاعر يسمع أصواتاً ولا يرى مصدرها (أسمع الغناء ولكني لا أرى العصافير)

لأنّ الوهم هو ما يجعل الإنسان يأمل بما ليس موجوداً ويرى ما ليس بحقيقة فهو يتمنى أشياء ألفها في فكره واعتقد بوجودها وآمن بها وبحدوثها لكنها في واقعها لاتتطابق في شئ مع الحقيقة. يجتمع هنا الخداع السمعي والبصري ليشكّلا وهم الإنسان المعاصر في كلّ ما يعيشه فهو يسمع خطابات الحرية ولا يعيشها، يسمع بيانات حقوق الإنسان وهو في عزّ معاناة الظلم ونهب الحقوق وهكذا حتى سيطر الوهم على الحلم والحقيقة معاً.

النتائج

توصّلت الدراسة الى أنّ هناك تنوعاً في صور القلق في النصوص الشعرية العراقية المعاصرة وكانت من أهم تلك الصور وأكثرها شيوعاً هي: صورة التوتّر الزمني كونه المصدر الأساس الذي يحيط بالإنسان ويمدّه بإحساس العجز عن مواجهة الضغوط الحياتية الى جانب صورة التوجّس وخوف الإنسان من حدوث كلّ ما يزعزع أمنه واطمئنانه حتى باتت العزلة الملجأ الآمن الذي يمنحنا شيئاً من الإستقرار. الى جانب صورة الوسواس الذي يتفرّع بصوره ودلالاته الى صور أخرى مثل الحيرة والسقوط في براثن الوهم. كل ذلك في إطار المنهجين الإستدلالي والنفسي اللذين احتويا بآلياتهما نصوص الشعراء عينة البحث فكان المنهج الاستدلالي وسيلتنا في التوصل الى فهم الظاهرة النفسية في كلّ نص من النصوص المختارة وذلك بالربط بين سبب الظاهرة ومقدماتها وبين نتيجة تلك الظواهر وماخلّفته في نفسية الإنسان العراقي الذي عانى شتى أنواع الحالات النفسية بسبب ما مرّ به مجتمعنا من ظروف صعبة إنبرى الشعراء في التعبير عنها كجزء من تخليد تلك المعاناة. وبما أننا نتحدث عن القلق وصوره فإنّ ذلك لم يتمّ ذلك إلا بالإستعانة بآراء علماء النفس وماقدموه من حجج وإستدلالات أظهرت لنا تعريف الحالة مع مسببها الرئيس الذي يبين دوافع القلق ويحدّد أنواعه المختلفة وصوره المتنوعة، وبما أنّ الهدف الأساس من مزج المنهجين الاستدلالي والنفسي هو الوصول الى حالات جديدة ومن ثم نتائج جديدة فإننا نؤكد بأنّ هناك حالات أخرى نفسية يعاني منها الكثير من الناس الذين قد لايفصحون أو لايتجرؤون على البوح بها مما يستدعي دراستها من الجانب النفسي ،هنا يأتي دور الشعر في نشر هذه الحالة أو تلك ليشترك الجانبان النفسي والأدبي في خدمة أهداف شتى لعلّ أهمها يدخل في مجال توعية الناس أو في الأقل مساعدتهم على إجتيازها بالتعرّف عليها من خلال الإطلاع على ماجاد به علم النفس من آراء ونظريات وعلاجات، لكن في النهاية تبقى القصيدة بكلماتها هي المحفّز الأقوى للإنسان ، فالكلمة هي غذاء الرّوح وأساس التعامل الفكري بين البشر وهي التي تعينه على المقاومة والمضي قدماً في هذه الحياة.

المصادر والمراجع

بان حميد فرحان. (٢٠١٢). الاثر النفسي والابداع الشعري، في النقد العربي القديم. *ملحق مجلة كلية التربية للبنات*.

جاك لاكان. (١٩٩٩). *اغواء التحليل النفسي*. (عبد المقصود عبد الكريم، المترجمون) مصر: منشورات المشروع القومي للترجمة.

حسان المالح. (٢٠٠٤). *(الشعر والشعراء من الناحية النفسية)* (المجلد الأولى). الطب النفسي والحياة.

رحيم زاير الغانم. (٢٠١٦). *ارى وحدتي ولاارانـي* (المجلد الاولى). بابل: المركز الثقافي للطباعة والنشر.

سجال الركابي. (٢٠٢٢). *همسيس صامت* (المجلد الاولى). الوراثة للنشر.

سعد ياسين يوسف. (٢٠١٨). *اشجار لاهثة في العراء* (المجلد الأولى). سوريا دمشق: دار امل الجديدة.

صادق الدراجي. (٢٠١٨). *نشيد القيامة* (المجلد الأولى). بغداد: دار ميزوبوتاميا.

عباس فالح. (٢٢ ٧, ٢٠٢٠). الدلالة النفسية عند الشعراء في النقد العربي القديم. *جريدة الصباح الجديد*.

عبد الحسين البريسم. (٢٠٠٩). *ديوان البريسم* (المجلد الاولى). بغداد: مركز العراق الدولي للثقافة والاعلام.

عز الدين اسماعيل. (د.ت). *التفسير النفسي للادب* (المجلد الرابعة). مكتبة غريب.

فرويد. (١٩٣٢). *محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي*.

فلاح الشابندر. (٢٠١٤). *(قصيدة النواطير) سطر الشارع مؤسسة المثقف العربي* (المجلد الأولى).

ماجد الحسن. (٢٠١٦). *اين يهبط بنا هذا الدخان* (المجلد الأولى). بابل، العراق: المركز الثقافي للطباعة والنشر.

مهدي القريشي. (٢٠١٩). *أحيانا وربما، (غيمة بلا مزاج)* (المجلد الأولى).

موشي زيدندر، و جيرالد ماثيوسنتر. (٢٠١٦). معتز سيد عبد الله. *عالم المعرفة، الاولى*.

نوال قيطون. (٢٠١٣). *تلقي المنهج النفسي في النقد العربي الحديث*. جامعة العربي بن مهيدي.

يقظان الحسيني. (٢٠٢٠). *شاهدا أردت أن اكون*. بابل، العراق: دار الفرات للثقافة والاعلام.

Sources and references

Ban Hamid is hilarious. (2012). The psychological impact and poetic creativity in ancient Arabic criticism. Supplement to the College of Education Magazine for Girls.

Jacques Lacan. (1999). The seduction of psychoanalysis. (Abdul Maqsoud Abd al-Karim, The Translators) Egypt: Publications of the National Translation Project.

Hassan Al-Maleh. (2004). (Poetry and Poets from a Psychological Point of View) (Volume One). Psychiatry and life.

Rahim Zayer Al-Ghanim. (2016). I see my loneliness and they do not see me (Volume One). Babylon: Cultural Center for Printing and Publishing.

Sajal Al-Rikabi. (2022). A Silent Hiss (Volume One). Genetics Publishing.

Saad Yassin Youssef. (2018). Breathing Trees in the Open (Volume One). Syria, Damascus: New Amal House.

Sadiq Al Darraji. (2018). Hymn to the Resurrection (Volume One). Baghdad: Dar Mesopotamia.

Abbas Falih. (7/22, 2020). Psychological significance among poets in ancient Arabic criticism. Al-Sabah Al-Jadeed newspaper.

Abdul Hussein Al-Barism. (2009). Diwan Al-Prism (Volume One). Baghdad: Iraq International Center for Culture and Media.

Ezzedine Ismail. (d.t.). Psychological interpretation of literature (Volume IV). Strange Library.

Freud. (1932). Introductory lectures on psychoanalysis.

Falah Shabandar. (2014). (The Watchmen's Poem) Street Line, Arab Intellectual Foundation (Volume One).

Majed Al-Hassan. (2016). Where does this smoke land us? (Volume One). Babylon, Iraq: Cultural Center for Printing and Publishing.

Mehdi Al-Quraishi. (2019). Sometimes and perhaps, (A Cloud Without a Mood) (Volume One).

Moshe Zinder, and Gerald Matthewcenter. (2016). Moataz Sayed Abdullah. The world of knowledge, first.

Nawal Qaitoun. (2013). Receiving the psychological approach in modern Arab criticism. Larbi Ben M'hidi University.

Yaqzan Al-Husseini. (2020). A witness I wanted to be. Babylon, Iraq: Dar Al-Furat for Culture and Media.